

امريكا بين الحظر والاباحة

في اليوم الخامس من هذا الشهر ختمت في أمريكا تلك المحاولة الخطيرة التي أطلقوا عليها بحق اسم « التجربة النيلة » : أي محاولة تحريم الخمر في جميع الولايات المتحدة بأمريكا ، والآآن ونحن نشهد ختام هذه التجربة بحمل بنا ان نقف لحظة لنفكر في أمرها : كيف بدأت وكيف انتهت ، فأتنا ونحن نعيش في أقطار اسلامية يحرم دينها شرب الخمر ويحظر بيعها وشراؤها ، لا يجوز لنا ان نمر بهذا النبا الخطير كما أنه أحد الأبناء العادية . بل يحمل بنا ان نعلم النظر فيه قليلا .

ليست الولايات المتحدة دولة كسائر الدول ، بل يميزها أمور عديدة : منها حجمها الهائل ، فإنها تكاد تعدل أوروبا في المساحة . وهي وحدها عالم قائم بذاته . ثم سكانها ، وهم يربون على مائة وعشرين مليوناً من الناس ، أكثرهم يمت إلى أصل سكسوني ، ولكن بينهم جماعات كبيرة من الاسكندنافيين واللاتين والسلاف وخليط من شعوب الأرض جميعا ، وهذا عدا الزنوج الذين يزيدون على عشرة الملايين ، وقد جيء بهم فيما مضى عبيدا لكي يعملوا في الحقول ، ثم أصبحوا اليوم أحرارا ، لهم من الوجهة النظرية ، ماغيرهم من الحقوق .

ثم هنالك أمر آخر يميز نظام الحكم في الولايات المتحدة ، وهذان لتك من الثاني (والاربعة) ولاية التي تألف منها الدولة نصيباً كبيراً من الاستقلال الداخلي ، ولهذا كان في الولايات المتحدة دائماً سلطان : السلطة المحلية ومركزها عاصمة كل ولاية ، والسلطة الاتحادية ومركزها واشنطن . وهي التي تدير الامور التي تهتم الدولة كلها . ونظرا لحرص كل ولاية من الولايات على حقوقها واستقلالها ، فان دستور امريكا يوضح تماما ماهو داخل في اختصاص الحكومات المحلية ، (State govt) وما هو داخل في اختصاص الحكومة الاتحادية (Federal govt)

كل هذا لابد لنا من تذكره كي نستطيع ان ندرك الصعوبة التي كابستها حكومة امريكا من أجل تنفيذ قانون التحريم . فان هذا القانون بقي سيرا على ورق ، لان معاقبة المجرمين من أجل جرائم التهريب والاتجار في الاشياء المحرمة كان من اختصاص كل ولاية وليس من اختصاص الدولة . وهذا يفسر لنا إن مجرما خطيرا مثل آل كابوني لم تستطع الدولة أن تحاكمه من أجل الجرائم العديدة التي ارتكبها

في سبيل تجارة الخمر المحرمة . بل حاكمته من أجل تقصيره في دفع ضريبة الدخل . اذ كان من اختصاص الدولة ان تحاكمه من أجل هذا الجرم الخفيف نسبيا . لاسيما أجل الجرائم الكبرى التي هي من اختصاص الولاية .

ولا بد لنا أن نتساءل عن المؤثرات والقوى التي دفعت بالولايات المتحدة نحو التحريم ، اذ ليس من السهل أن نفهم هذا الانقلاب الهائل في الرأي العام ، فان الامة التي نادى بالحظر الشديد في سنة ١٩١٩ هي بعينها التي تنادى اليوم بالاباحة . ان هذا القانون لم يفرضه — الحكماء على الناس فرضا ، بل لقد فرضته الامة على نفسها بعد انعام النظر وطول التجربة . وقد كانت في الولايات المتحدة قوى كثيرة تعمل بنشاط لتحريك الرأي العام وتحويله نحو التحريم . وهذه القوى كانت موجودة دائما تنتظر الفرصة الملائمة ، وكان لها تأثيرها قبل سنة ١٩١٩ . ونرى هذا واضحا في أن أكثر من الثلاثين ولاية قد حرمت الخمر من تلقاء نفسها قبل سنة ١٩١٩ . ولكن هنالك فرق كبير بين أن يحرم الشيء في كل ولاية على حدة ، وبين أن يحرم بقانون من الدولة ، في الحالة الاولى ترعى كل ولاية مصلحتها الخاصة ويسهل عليها تعديل والقاء الاحكام ، ويمكن لمن لا يرضيه قانون الولاية أن ينزع إلى ولاية مجاورة (وهذا هو الحال مثلا فيما يتعلق بقانون الطلاق) . أما قانون الدولة فيفرض على جميع الولايات بمجرد موافقة ثلثها . يفرض على الراغبين والكارهين على حد سواء ، ويصبح كل فرد ولا مفر له من الاذعان أو العصيان ، ثم تجرد جميع قوى الدولة لتنفيذ هذا القانون بكل ما تقدر عليه الدولة من الشدة والصرامة .

ولهذا كله فان تحريم ثلاثين ولاية للخمر لم يكن له تأثير ذو شأن ، ولكن التحريم في الدولة كلها كان حادثا ذا شأن خطير . كان أهم الراغبين في التحريم رجال الصناعة في الشمال ، ورجال الزراعة في الجنوب . فالأولون — ويمثلهم المستر هنري فورد — قد رأوا أن الخمر تذهب بقوة العمال وتضعف صحتهم وتقلل من جهودهم ، فلا يستطيع صاحب المعمل ان يحصل من عماله على الجهود التي يرجوها في مقابل الاجور التي يدفعها . أما أصحاب الزراعة في الجنوب فيعتمدون في زراعتهم على الزوج ، وهؤلاء كانت تذهب الخمر بألباسهم وتقدم عن العمل ، وتركهم في حالة زرية . والزنجي أقل قدرة على ضبط نفسه والوقوف في الشراب عند حد . وكان هنالك غير هؤلاء جماعات من مجي الخير الذين يكرهون الخمر لذاتها ، ويريدون أن يخلصوا الناس من شرورها ، مؤمنين بأن

في هذا رفعا شأن بلادهم ، واعلاء لكلماتها ، ويمثل هذه الجماعة المستر جون ركفلر الصغير وزمرته . وقد انتشر في الولايات المتحدة قبل التحريم نوع من الحانات أطلقوا عليه اسم الصالون (Saloon) قد أصبح على مضى الزمن بؤرة فساد وموبقات . وقد كبر بعض الناس لهذه الصالونات حتى دفعهم الى المطالبة بالتحريم . مع أن ابطال هذه الاماكن قد لا يستدعي هذا العلاج الصارم .

بذلك هذه الجماعات كلها جهودا جبارة ومالا كثيرا من أجل استماله الرأي العام . وساعدتهم الحرب العامة التي استدعت تحريم الخمر في بعض الولايات ، والتقليل من شربها في البعض . وتم لهم النصر في يناير سنة ١٩١٩ حين حرمت الخمر في جميع الولايات باجماع ٤٦ ولاية من الثماني والأربعين التي تتألف منها الدولة ، وحرم بيعها وصنعها والاتجار بها واستحضرها من الخارج . وجهزت الدولة جيشا هائلا وأسطولا قويا لتنفيذ هذا القانون . الذي أعطى شكل تعديل في الدستور وأطلق عليه اسم التعديل الثامن عشر ، ومن الغريب أن دستور الولايات المتحدة لم يعدل يوما بمثل هذا الاجماع وهذا الاقتناع وتلك الاكثريات الساحقة .

لقد وصفت الولايات المتحدة بأنها معمل هائل للتجارب الاجتماعية ، ولكن لا يعرف في تاريخ العالم كله تجربة اجتماعية ضخمة كهذه التي أقدمت عليها أمريكا في تلك السنة . فان المعمل الذي أجريت فيه هذه التجربة ليس بلدا صغيرا كفنلندة ، بل دولة مساحتها تزيد على ثلاثة الملايين من الأميال ، وسكانها يربون على المائة والعشرين مليونا مختلفي الجنس والثقافة والميول . وان البلاد الاسلامية نفسها وهي أولى من أية بلد في العالم باجراء مثل هذه التجربة لم يعرف عنها يوما أنها حاولت بذل مثل هذا الجهد في أي عصر من العصور من أجل تنفيذ أحكام الشريعة .

ولهذا دهش العلم كله يوم أقدمت الولايات المتحدة ، حرة مختارة ، على هذه التجربة الخطيرة . وانا اليوم - وقد أصبحنا عقلاء بعد ان وقعت الواقعة - نستطيع أن نقول إنه كان الافضل ان تترك مسألة الاباحة والتحريم الى كل ولاية تتصرف فيها بمائشاه . بدلا من أن تصبح مسألة الدولة باجمعا ، ولكن في سنة ١٩١٩ لم يكن من شك في ان أكتية الامة في جانب التحريم . وقد أقدم نحو ثلاث وثلاثين ولاية على تحريم الخمر

على كل حال سارت التجربة في طريقها اول الامر . وانظار العالم كله تطلع الى أكبر دولة في العالم ، وهي تحاول أكبر

تجربة اجتماعية في التاريخ . وكان الكثير من الناس يبدى عطفه على أمريكا وكأنها الكل واثق من نجاح التجربة في النهاية برغم ما قد تلاقيه من الصعوبات ، وجعل بعض المصاحين يحلمون بأن سنة التحريم ستنتشر من الولايات المتحدة الى سائر الاقطار

ولكن كانت هنالك قوى تعمل للشر ، وان لم يتوقع أحد أن سيكون لها كل هذا الخطر ، فنهضت هذه القوى الشريرة لتنظيم الاتجار بالخمر بكافة أنواعها ؛ بما قد يصنع خلسة في داخل البلاد أو يستورد من الخارج . وسرعان ما أنشئت أساطيل لاعمل لها غير هذه التجارة المحرمة ؛ واتسع نفوذ هذه الجماعات حتى أصبح لها نفوذ كبير - بل أحيانا النفوذ الأكبر - في كل ولاية ، حتى لقد كانت لها الكلمة النافذة في تصيب رجال الحكم . وانتشر الاجرام بين هذه العصابات ومن يعترضها في أعمالها ، وكذلك فيما بين العصابات المتنافسة نفسها ؛ وأصبح أمرها حديث النوادي والصحف وموضوعا للصور السينمائية ؛ وبطريق العدوى تجاوز الاجرام دائرة تجارة الخمر ، الى الاجرام في نواح أخرى كالاختطاف والسلب والنهب وما الى ذلك .

بات من الواضح للعالم كله أن تلك التجربة الهائلة قد فشلت فشلا تاما . فان الحصول على الخمر برغم التحريم كان أمرا في غاية السهولة . ولئن كانت الحانات القديمة (الصالونات) قد أغلقت ، فقد نشأ مكانها حانات خفية أشد خطرا وأكثر وزرا . وهذه أطلقوا عليها اسما غريبا وهو (Speakeasy) . ويؤكد أكثر الكتاب أن شرب الخمر في زمن التحريم كان أوسع انتشارا مما كان عليه قبل التحريم .

ولكن برغم فشل التجربة الذي كان واضحا لكل ذي عينين ، بقي في الولايات المتحدة جماعات كثيرة تنادى باستمرار التحريم ، وبتشديد المراقبة والضرب على أيدي المجرمين . غير أن هذه الجماعات أخذت تضعف على مضى الزمن . حينما انتشرت في طول البلاد وعرضها جرائم متكررة من نوع اختطاف طفل لدبرج ، فأيقن الناس أن التحريم قد أوقع البلاد في حال من الفوضى والاختلال هي شر من الخمر التي أريد تحريمها .

ومن أكبر مظاهر التحول في الرأي العام ، ذلك الخطاب الشهير الذي كتبه المستر جون ركفلر الصغير في صيف سنة ١٩٣٢ يبدى فيه أسفه الشديد لأنه - وهو من أكبر دعاة التحريم - مضطر الى الاعتراف بأن التجربة النيلة قد فشلت فشلا محزنا .

وحدة الوجود...

كثير من الماسح الفكرية، والمذاهب العقلية، والطرائق الرياضية، ترى إلى وحدة الوجود، وكلها تتباين في طرق التفكير، ونهج الفلسفة، ولكنها متفقة بجمعة على حقيقة واحدة: تلك الحقيقة هي أنه بين غير المتناهي والمتناهي علاقة يتأدى بها إلى اتحاد الطرفين

وكما اتفقت تلك الفرق في اختلافها على هذه الحقيقة. اتفقت في وجهة النظر التي سارت بهم على ضوء المقدمات حتى انتهت بهم إلى هذه النتيجة، فهم متحدون في المصدر والمورد مختلفون في الطريق الذي ينهما

فالكثرة الغالبة من فلاسفة الصوفيين في الإسلام يعتبرون أن الحق موجود قبل كل موجود، وهذا صحيح، ثم يقولون وقد وجدت الكائنات بعد أن لم تكن، ولما كان غير معقول أن يوجد شيء من لا شيء، لزم بالبدهة أن يكون الوجود هو عين الموجود، وأن ليس وجود الوجود الحق بصور أحوال ما هي عليه الكائنات، فانه ظاهر في المظاهر، والمظاهر هو على ما هي عليه وهذا بعينه هو ما انتهى إليه هيراكليت، الفيلسوف اليوناني اذ استنتج أن الكائن الالهي يتخلل صور الأشياء المتناهية، والمتناهي نفسه لا يوجد إلا في الله

وتكاد تكون عين ما وصل إليه تولاند، أول من أطلق اسم الاتحاد في أوروبا. حيث زعم أن العالم ليس منفصلاً عن الله إلا في وهما فقط

وقديما تسأل الناس من أين جاءت الروح، ومم نشأ الجسم؟ ثم قالوا إذا كان واجب الوجود غير متناه وجب ألا يوجد شيء خارجاً عنه، لأن غير المتناهي يستغرق كل موجود

وإذا تقرر أن الأرض وما تبع ليست إلا مجموعة صغيرة حقيرة من مجاميع لا عدد لها تسير بقانون في فضاء لا يتناهي إذا تقرر هذا جاء العقل فقال إن شئتين غير متناهيين لا يوجدان معاً، فإذا كانت الكائنات غير متناهية، والحال غير متناه، وجب أن أحدهما هو الآخر

وعلى ضوء هذا الفكر مثى العقل طفلاً يجبر إلى الاتحاد، فلما أن شب واستطاع أن يمشي على ساق الاعتقاد بافتراض الشك جرى إلى المذهب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً

وهكذا أخذ الرأي العام يتحول حتى استطاع المستر فرانكلين روزفلت أن يستميل الأمة إلى صفه، حينما أعلن في شجاعة وصراحة أن من مبادئه إلغاء التحريم. ومنذ انتخب للرئاسة في أوائل هذا العام وهو يسير بالبلاد نحو الإلغاء حتى تم له في أوائل هذا الشهر ما أراد، بأن حصل على موافقة ست وثلاثين ولاية على إلغاء التعديل الثامن عشر.



والآن وقد انتهى التحريم، فما عسى أن يكون المستقبل؟ ان الذين نادوا بإلغاء التحريم، لم يفعلوا ذلك لرغبتهم في شرب الخمر وحدهم لها؛ بل إن أكثرهم قد فعل ذلك أملاً في أن الإباحة تقضي على تلك الشرور التي ولدها التحريم. فتنهى بانتهائه. ولكن من الصعب أن يتبأ المرء بشيء. فان بضع عشرة سنة تقضيها عصابات الاجرام في نشر الاجرام والفساد في جميع أنحاء البلاد، لا يتصور أن تنتهي آثارها في عشية أو ضحاها. وما لاشك فيه أن البلاد اليوم في حال انتقال شديد الخطورة، فقد تفتق بسرعة من تأثير هذه السنين العصية، وقد تبقى تحت ظلها القائم زمناً طويلاً، خصوصاً اذا ذكرنا أن عدد الذين يشربون الخمر قد ازداد ولم ينقص أثناء التحريم. وأن الإباحة الجديدة لا بد أن تؤدي زمناً ما إلى الاسراف في أمر محبوب كان ممنوعاً فاصبح مباحاً. ومن غير شك أن الحكومة تعزى نفسها بأنها ستجني من الإباحة ضرائب تقدر بنحو خمسمائة مليون دولار. (أي نحو مائة مليون جنيه).

على كل حال لا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الأسف الشديد على فشل هذه التجربة الشريفة التي لم تكن ترمي إلا إلى أشرف المقاصد وأسمىها وهو إعلاء شأن الإنسان وإسعاده.

٢٠٤٠

تصحيح

جاء في قصيدة (شيدا الطيران) المنشورة في العدد الماضي قوله: (واشهدوا الانس تهوى للقرار والصواب للفرار) وقوله: (فدية لوصح في الموت للفرار) والصواب: الفداء